الولاء الوطني.. صناعة أم اكتساب فطري؟!!

أوس العولقي

● مشاعر ووجدان الانسان وفكره وسلوكه تنبض بالحيوية والتألق عندما تجسد انتماءه الوطني.. لأنه بقدر ما يصرح بحقيقة الوجود الفردي فهو ينطق بحقائق الوجود الاجتماعي الذي يعبر عنه ذلك الوطن.. فمتطلبات الفرد لا تتناقض مع حاجات المجتمع... وكل له قوانينه التي تحكمه والوطن ليس الجغرافيا المادية فحسب.. لكنه الأرض بكل معطياتها مضافاً اليها الانسان بأفعاله وحركته وفكره وعلاقاته.. أي أن المريخ وغيره من الكواكب والأجرام السماوية ليست أوطاناً.. لغياب الانسان مادياً ومعنوياً عنها.

ببساطة شديدة جداً ما دام الانسان يولد وينمو ويتفاعل ويموت على أرض فهي وطنه.. يولد فطرياً منتمياً اليه.. يزداد عمق انتمائه اليه بزيادة حجم تفاعلاته عليه.. نعم تفاعلات مع الأرض والمجتمع.. أي مع الوطن.. وبقدر ما تكون تفاعلاته كثيرة وكبيرة وايجابية.. تكون هناك حضارة يفخر بها ويستقي من خيراتها ويفيد بها البشرية توكيداً للفوائد العظيمة التي يجنيها من وراء انتمائه الى وطنه.. التربية والتعليم وحدهما الكفيلان بتنمية الانتماء الوطني ومد جذوره عبر التاريخ.. لا يمكن أن يكون صناعة عشوائية تمر من خلال الندوات والمهرجانات وتسميات لجمعيات أو جماعات أو أشكال اخرى والتي ظهرت على الساحة اليمنية موخراً.. علينا أن نعي جميعاً أن الانتماء الوطني نبتة وغرس فطريان تنموان وتتعمق جذورهما في الانسان بفعل احتكاكاته وخبراته الحياتية.. ويبدو أنه من المهم أن نشير الى أن المواطنة المتساوية بمعناها من حيث الحقوق والواجبات تمثل العمود الفقري في تجسيد وتعميق الايمان والتمسك الطوعي بثوابت الانتماء للوطن والولاء له وفاءً واخلاصاً.. لأن الأمر متعلق بأغلى ما في الانسان وهي كرامته والتي يجب عدم المساس السلبي بها.. فقد كرم الله بني آدم كما أشار في القرآن الكريم حيث قال تعالى: «وكرمنا بنّي آدم» صدق الله العظيم.. وكرامة الفرد لا تسمو إلاّ بتساوي الأفراد حقوقاً وواجبات.. فالمواطنة المتساوية وسيادتها هي التي تحفظ الكرامة.. ويزول معها الغبن والحقد والكراهية التي هي عوامل تعبر عن الظلم والذل.. وهي مزيلات سريعة لفاعلية الانتماء للوطن.. علماً بأن من يخون وطنه ولا تظهر عليه علامات الانتماء الوطني هو شخص ذليل.. لكن ذلك الاحساس الغريب لا يولد مع الانسان.. بالعكس فإن ما يولد فطرياً مع الفرد هو الانتماء بأبسط معانيه.. ثم كما قلنا يأتي تفاعلاته مع مجتمعه وبلده ليبدو الانتماء جلياً وفي صور متعددة منها الاخلاص في العمل والانتاج.. والذي يكبر به الوطن ويعود بالخير الكثير على الجميع.. كذلك تمسكه بالقيم والمبادئ والاخلاقيات التي ترفع من شأن الوطن وبالتالي تكون من أولويات ما يدعه في النشء من تراث فيكون الجميع على استعداد للدفاع عن كرامة وشرف الوطن بالدم والأرواح تخليداً لذلك المبدأ الرفيع والنبيل وهو الانتماء الوطني.. والى جانب التساوي في المواطنة والتي تبدو ملامحه الأولية في هيئة احساس الفرد بكرامته.. هناك المسئولية التي يشار اليها في علم الاجتماع بالمسئولية الاجتماعية.. والتي تعد أرقى عامل يؤدي الى الانتماء الوطني.. انها مسئولية ذات مصدرين من الفرد تجاه المجتمع.. وايضاً من المجتمع صوب الفرد.. عندها يتحقق التوازن في المسئولية.. وتسود الثقة بين الأفراد والجماعات بين الحاكم ومواطنيه وبين المجتمع والفرد.. فينشأ عن ذلك ما يسمى بالأمن والأمان على صعيد الفرد والمجتمع.. حتى ولو اختلف الأفراد واختلفت الجماعات عرقياً أو قبلياً أو مذهبياً أو طائفياً فإن هذا التنوع بوجود المواطنة المتساوية والمسئولية الاجتماعية يكون عامل ثراء وحيوية حضارية بل وعاملاً اساسيا ومهما من عوامل التماسك والوحدة.. ولنا في انفراط عقد الاتحاد السوفييتي ثم تمزق عدة دول فيه كيوغسلافيا دليل على تفسخ قيم الانتماء عن كيان المواطن هناك.. ورغبته في الانفصال والانعزال بحثاً عن الرخاء والعدل اللذين لا يمكن أن يتحققا بدون سيادة مبدأ المواطنة المتساوية على الأرض وتألق المسئولية الاجتماعية في أنقى صورها.. كما أن رغبة سكان جنوب السودان وأقليم دارفور في الانفصال ما هما إلاّ حالتان تطبيقيتان لندرة الانتماء الوطني لدى جماعاتٍ من سكان السودان لوطنهم الأكبر.. والناشئي اصلاً عن فقدان الاحساسن بالأمان في ظل بروز مواطنة غير متساوية وغياب شبه كامل للمسئوليةٍ الاجتماعية بين السكان.. بينما نجد الانتماء مجسداً بشكل بديع ومشرف في لبنان المتعدد المذاهب والطوائف.. لكن الانتماء الوطني للبنان يأتي في أول سلم الأولويات لكل مواطن لبناني.. ولو غابت مبادئ اساسية كالمواطنة المتساوية بين اللبنانيين لوجدنا هذا البلد الجميل والمبدع وقد تطاير شظايا قزمية لكثرة الطوائف والمذاهب هناك.. أيضاً الولايات المتحدة الأمريكية وكندا تتعدد فيهما الاعراق والقوميات والمذاهب والطوائف ولا يوجد ما يرابط مواطنيهما سوى المصالح الاقتصادية والمواطنة المتساوية وقدر هائل من المسئولية الاجتماعية.. نجد أنهما دولتان موحدتان متماسكتان.. والانتماء الوطني لمواطني كل منهما في أعلى درجاته لنفس الأسباب التي ذكرناها.. اذ صار هذان البلدان في مصاف الدول المتقدمة حضارة ورقي ورخاء وازدهار.. ولنا مثل أخير نراه جلياً في شعور المواطن المصري بانتمائه لبلده مصر.. رغم أن في مصر طوائف ومذاهب واعراقاً.. لكن مصر ظلت وستظل موحدة يتجسد فيها الانتماء الوطني في مختلف الظروف.. وهي في نظرهم مصر العظيمة وأم الدنيا اشارة الى ذلك الانتماء الراقي.

تعبئة الوطن..!!

عائشة الطويلي

● من الصواب أن تعبر عن رأيك بصراحة دون أدنى حد، لكن من الخطأ أن تصوب سهامك التي تنحدر في الأصل من اتجاهاتك وثقافتك الخاصة- نحو القارئ أين كان اتجاهه وانتماؤه بلغة سالبةٍ في المبنى والمعنى، فمبدأ الديمقراطية لا يدعو مطلقاً الى تبني تلك النظرة الضيقة تجاه متغيرات حياتية مستمرة، كانت ولاتزال بالضرورة ملصقة بمؤثرات داخلية وخارجية تعكس الواقع بنوعية السلبي والايجابي.

لأننا لسنا منائ عما يحدث في العالم أجمع، فنحن جزء من تلك الخارطة الكبيرة، وتلك الاحداث الجسيمة، وما تسلطه العديد من الصحف الحزبية والمستقلة من اضواء ساطعة، على عديد من القضايا الداخلية، وترجمة تلك القضايا بحسب ثقافتهم الشخصية ونظرتهم للأمور العالقة دون غيرها، انما هو ناتج عن افتقارهم للمبادئ العليا التي من أولوياتها احترام المكان الذي يعلنون من خلاله تلك الخزعبلات الداعية حيناً والمناهضة حيناً آخر، مصورين لنا الواقع بأسلوب أشبه بالعدائية القاتلة، وكأن المتهم خالٍ تماماً من المحسنات البديعية وفاجر وأفاق ولا يستحَق العيش ولو للحظة واحدة لأنه، ولأنه.. و..

يصورون لنا العالم من خلف نظارات سوداء يصعب على البليد تحاشي سمومها أو الاحتراس منها يحملون الوطن ما لا يطيق!! ويتعمدون في رسم الصورة السيئة التغاضي أو التجاهل للصورة الحسنة.

حملات متسلسلة من المقالات الحاشدة تسب هذا وتشتم ذاك وتفضح هذا وتقبح ذاك، وكأن النيران تصحبنا في كل مكان ولم يعد أمامنا سوى اعلان عمليات الانتحار والانتهاء في أسرع وقت أين يقبع الفكر الايجابي لديهم؟ هل هو مجرد قنابل ومتفجرات؟ تقوم على نشر الضغينة وحشد الكراهية بين أوساط المجتمع..!! أين تقع مسئوليتنا نحن المثقفين؟ والى أية جهة لابد من توظيف أقلامنا للسالب أم للموجب..!! وما الذي سيستفيده الوطن من كل تلك الثورة؟ وعلينا جميعاً صياغة الهم بأسلوب لائق ومسالم، لا يحمل الحقد، لا يحمل التعبئة، لا يحمل اليأس وعلينا كمسئولين عن رصد الخبر احتواء الاحداث بأسلوب ديمقراطي مشبع بلغة راقية بناءة غير هدادمة تخاطب لتوجه بلغة محايدة تدعو للحرية والتعاون والتقدم والمساواة والازدهار والعمل والكفاح والنضال والاجتهاد والكسب والبناء والنهوض والمشاركة والتفاؤل والحق والنصر والمبادرة من أجل وطن خال من عقد الماضي، وطن يحويٍ بينٍ أضلعه أبناءه الأبرار الأوفياء من كل حزب وحدب.

تنمية الروح الوطنية والاسئلة المنسية

اذا كان يراد للمجتمع ممارسة ادوار فاعلة في بناء الدولة، فلا بد من تحليه بروح وطنية عالية، ذلك ان الحماس المستمد من مشاعر الانتماء الوطني بمقدوره في حال توظيفه بطريقة صحيحة تعزيز تماسك الدولة، ومواجهة التحديات التي تتعرض لها، وتخفيف الاعباء التي تثقل كاهل اجهزتها، لكننا نلحظ ان مستوى الولاء الوطني الذي يشكل جوهر الروح الوطنية في تراجع واضح لحساب ولاءات فرعية كالمذهب والعشيرة وغيرها .

د. جليل وادي

ما شكل عقبة كأداء امام الغايات التي تبغي العملية السياسية الوصول اليها، بخاصة ان من آثار تراجع الولاء خلق روح سلبية غير مبالية ازاء الوطن، وربما تمارس ادوارا تخريبية ضده سواء اكانت تلك الادوار مقصودة او غير مقصودة .ويشار الى ان تراجع الولاء الوطني كان من ابرز السلبيات التي انتجتها الظاهرة السياسية العراقية خلال مسيرتها الطويلة، لكنها طفت على السطح بشكل جلي بعد احداث التغيير ،وتعززت بعد ذلك بانتهاج سياسات خاطئة، ما جعل الفرصة سانحة لتفعيل ولاءات فرعية عديدة ابرزها الولاء المذهبي الذي وظف طائفيا كأداة لادارة الصراع الدائر على السلطة .

ومع ان تراجع الولاء ظاهرة قديمة في تاريخ العراق، لكنه غالبا ما كان كامنا بسبب تعسف الانظمة السياسية، الامر الذي دعا الجماهير الى تحاشي بطشها والتظاهر بارتفاع روحها الوطنية مع انها كانت خفيظة الى حدودها الدنيا .

حاجة ملحة

ازاء ذلك فان العملية السياسية الجارية احوج ما تكون للارتقاء بالولاء الوطني اذا ما اريد لها ان تكون ناجحة، على الرغم من ان التحلي بالولاء الوطني لايعني بالضرورة الاندماج بالعملية السياسية، لكنه قد يكون محددا لطبيعة ونوعية سلوك الافراد والجماعات التي تقف بالضد منها، ذلك انه قد يدفعها الى التعبيرعن معارضتها بأشكال سلمية، بينما ينتج غيابه سلوكا عدوانيا لايأخذ بالحسبان حجم الخسائر التي تطول المجتمع، في حين يشكل وجوده لدى الحلفاء التفافا جماهيريا للدفاع عن العملية السياسية حيال الاستهدافات المعادية .

تشخيص الاخطاء

بالرغم من ان ظاهرة الولاء الوطني تنطوي على بعدين احدهما سياسي والاخر اجتماعي، الا ان الاسباب السياسية كانت الاكثر تأثيرا في تراجعه، وفي الظاهر تبدو بعض تلك الاسباب معروفة للجميع، لكن منها ماهو غائص في ثنايا الظاهرة السياسية ويستعصي التعرف عليه من دون اخضاع الظاهرتين للتحليل الاكاديمي على وفق المناهج العلمية .

ومع اهمية وخطورة تراجع الولاء الوطني التي وصلت بالافراد الى حد التصريح بها علانية، وعدم محاكمة سلوكهم على وفقها، الا ان المؤسسة السياسية لم تسأل نفسها يوما عن اسباب هذا التراجع، بالرغم من ان وجودها مرهون به، وهكذا ظلت الظاهرة عرضة للتشكل العشوائي، وتأكل من جرفها اخطاء سياسية.

وبما ان رغبة جامحة تحدو الجميع لبناء وطن بمفاهيم عصرية تتوافق مع تطلعات الجماهير، فأن ذلك لن يكون من دون توافر روح وطنية عالية. واذا كان الولاء الوطني اكثر عمقا من الاتجاهات في احيان كثيرة، فأن عمليات بنائه ليست بالسهلة، وتقتضي زمنا ليس بالقصير، وان كان من عناصره ما هو غريزي وراسخ في سليقة الانسان بحكم حبه لوطنه وشعوره بالانتماء اليه، لكن ما هو غريزي قد يتفتت بمرور الازمنة اذا لم يكن هناك ما يعززه ويديمه، وعلى هذا ولكي تسهل عمليات تشكيله او تعزيزه لابد من الوقوف على اسباب تراجعه ومنها :

الولاء للوطن ام للسلطة

مر الولاء الوطني بمراحل عسيرة، اكثرها قساوة تلك التي ربطته بموقف الافراد من السلطة، اذ كان الولاء للسلطة يشكل معيارا لمستوى وطنية الافراد والجماعات، وبذا تحولت عمليات تشكيل الولاء من الوطن الى السلطة، ما افرغه من مضمونه الحقيقي، الى درجة غدا التعبير عنه يعني دعما للسلطة، او هكذا يفهم من الاخرين، حتى ترك الوطن نهبا لقوى خارجية ظنا ان الدفاع عنه دفاع عن السلطة .

جوهرالمواطنة

تعد المواطنة من الينابيع التي تنهل منها الروح الوطنية، لكن المواطن لم يشعر او يقنع ان مفهوم المواطنة قد تحقق بابعاده كافة على اختلاف الانظمة السياسية التي مرت بها البلاد، كما ان الاجراءات التي اتخذتها الاجهزة التنفيذية والمتعلقة بالمواطن لم تشبع هذا المفهوم بالمضامين التي يقتضيها، فالمواطنة ليست ثقافة او معاييرعدم التمييز بين المواطنين فحسب، بل انها ايضا مجموعة الحقوق المترتبة للمواطن على الدولة والتي في ضوء تحققها ينمو الشعور بالولاء والانتماء الوطني، وبالتالي ارتفاع الروح الوطنية سواء في التصدي للمخاطر او المساهمة الفاعلة في عمليات البناء .

لقد رسخت مشاعر وقناعات لدى المواطنين بان الانسان لايشكل قيمة عليا في المنظومة السياسية، وانه الضحية الاولى لاخطائها ومجازفاتها، وانها تستخدمه وسيلة للوصول الى اهدافها التي لاصلة لها به، وانها شديدة المطالبة بأداء الواجبات المطلوبة منه من دون ان يرافق ذلك التزام حريص على الوفاء بحقوقه المتمثلة بحياة كريمة آمنة، وعليه فأن الولاء الوطني يتشكل ويتعمق عندما يقنع المواطن ان الدولة واجهزتها وجدت من اجله . وبهذا الصدد هناك اسباب اخرى لايتسع المجال لذكرها . فضلا عن تلك التي لاتتضح الا من خلال البحث العلمي.

اليمن في جيوبنا

نشوان دحان

ببساطة الباب مفتوح للربح. وبلد رخو كاليمن يمكن بسهولة ممارسة لعبة الاستغفال وعلى مستوى عال من الانحطاط، اليمن التي تعيش وسط جبهاتٍ خراب عديدة، كل جبهة منها تصبح وبسهولة مجالاً للابتزاز والارتزاق، لايكفي فقط أن تغلف المشروع بعبارة "حب اليمن، وحدة اليمن.. وإلخ".

قبل عام ونيف نطت إلى الساحة لُعبة "اليمن أغلى" وشاهدنا ملء الشوارع وجدران المبانيٍ لوحات إعلانية كتب داخلها "اليمن أغلى" واتضح فعلاً أن اليمن أغلى حيث اسطوانة الغاز أغلى والأسعار كل يوم وهي أغلى والصحة أغلى ووحده الإنسان اليمني رخيص.

تلك الملصقات واللوحات الإعلانية الضخمة تم الإنفاق عليها من خزينة الدولة المنهكة، في حين أن بوسع تلك المبالغ التي تصرف على دعايات الحب الانتهازي بناء مدينة سكنية يحتاجها اليمن المتعِب.. في بلد كاليمن المصنف ضمن الدول الأشد فقراً في العالم لاتزال فرص الرزق فيه كثيرة، تبدو المفارقة عجيبة للوهلة الأولى لكنها حقيقية بإمكان أحدنا أن يلحظها دون أدنىٍ صعوبة، المهم أن تجد الفكرة المناسبة لتكسب أموالاً طائلة قبل أن يتم استنساخها لتصبح "موضة العصر".

في السابق انتشرت محلات الاتصالات بكثافة كمشروع ،الربحية فيه مضمونة قبل أن تتحول الأنظار إلى حافلات النقل الجماعي ومن بعدها مقاهي الإنترنت و... إلخ.

في الآونة الأخيرة شهدت بلادنا تشكيل وإشهار عدد من الهيئات الوطنية التي تحمل شعاراتٍ تنادي بتعزيز قيم الولاء الوطني "اليمن في قلوبنا" ، "اليمن أولاً" فضلاً عن هيئات الدفاع عن الوحدة التي انتشرت في معظم المحافظات.

ربما تحمل هذه المنظمات في ظاهرها رحمة الأهداف النبيلة لكن الواضح أن باطنها لايحيد عن المصالح الماديةٍ والرزقِ السهل الذي لايتطلب أكثر من البحث عن شخصية تمثل ثقلاً سياسيا أو اجتماعيا لتولي مهام الرئاسة وعملية إشهار قد لاتكلف كثيراً من الأموال مقابل ما ستجنيه من عوائد في ظل مباركة حكومية لمثل هكذا منظمات يعول عليها أن تكون قشة النجاة لإخراج البلد من أزماته، قد لايحتاج الفرد منا إلى شعارات رنانة أو فلاشات تلفزيونية لتعميق ولائه الوطني قدر احتياجه لاهتمام الدولة والنظام به، والمساواة في كثير من مناحي الحياة خاصة ما يتعلق بمعيشته وحياته، وهذا هو الأصل في إكساب الفرد قيمة الولاء وتعزيزها في نفسه.

يعتقد كثيرون أن فكرة هذه العبارة "اليمن في قلوبنا" جاءت كنوع من التقليد للاعب المنتخب المصري لكرة القدم "محمد أبو تريكه" الذي أظهر قميصاً كان يرتديه تحت فانيلة المنتخب مكتوبا عليه "غزة في قلوبنا" أثناء احتفائه بواحد من أهدافه في تصفيات أفريقيا ٢٠٠٨ وكان القصد منها لفت أنظار العالم إلى ما يعانيه قطاع غزة في ذلك الوقت من اعتداءات إسرائيلية.

استطاع "أبو تريكة" أن يحقق بهذه الحركة هدفاً إضافياٍ في مرمى الإسرائيليين الذين احتجوا عليه كثيراً فيما النجاح الوحيد الذي يمكن أن تحرزه هذه المنظمات هو مادي بحت وهنا يجدر بها أن تغير شعارها ليصبح "اليمن في جيوبنا".

إن اليمن الذي تحيط به الأزماتٍ والمخاطر من شماله والجنوب ليس بحاجة مثلا إلى أن يسافر وكيل وزارة الشباب والرياضة إلى ماليزيا لتنظيم ندوة هناك حول تعزيز الولاء الوطني كلفت خزينة الدولة أكثر من خمسة ملايين ريال، كما أنه ليس بحاجة لتنظيم مسابقات ثقافية بشعارات من هذا القبيل تنفق عليها الملايين من الريالات لغرس مفاهيم الحب والانتماء الوطني لدى الشباب.. اليمن بحاجة إلى القضاء على مراكز القوى التي جعلت الأشخاص يفرون من كلمة الولاء بمفهومه الضيق.

اليمن بحاجة إلى ولاء حقيقي لا يأخذ في الاعتبار المنافع المادية والمصالح الشخصية التي يمكن الحصول عليها من خلال المزايدة بهذا الشعار، نعم الولاء بمعناه الحقيقي الذي لايدركه سوى عدد قليل من الناس بوصفه محورٍ كل الفضائل بعيدا عن الممارسات السائدة الآن "فالولاء مرتبط أساساً بالقدوة والممارسات التي تعزز دوره لدى الفرد والمجتمع إذ أنه مبدأ أخلاقي يمثل كافة الفضائل والواجبات الرئيسية والمثل العليا" (بحسب الكاتب قاصد كريم).

ولاشك أن عملية تثبيت الولاء وتعزيزه يتطلب محاربة كل ما يضعفه من تصرفاتٍ وفساد وظلم فالولاء الحقيقي هو الحفاظ على سمعة الوطن قولا وفعلا والتضحية من أجله وفي كل الأحوال وأن يتساوى الجميع أمام القانون في الحقوق والواجبات ولن يكون منطقيا أو معقولا طلب الولاء من أناس بائسين لايجدون لقمة العيش ولا يأمنون مستقبل أولادهم وأحفادهم من بعدهم.